بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الثالث

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله صلىٰ الله وسلم عليه وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد؛

نكمل ما بقي من هذا الكتاب النَّافع المبارك كتاب «شرح حديث أبي الدرداء في طلب العلم».

قال المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ:

قوله ﷺ: «**وَإِنَّ العُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ**» يعني أنّهم ورِثُوا ما جاء به الأنبياء من العِلْم، فخلفُوا الأنبياء في أُمَمهم بالدَّعوة إلىٰ الله وإلىٰ طاعته، والنَّهي عن معاصي الله والذَّبِّ عن دِينه.

وفي مراسيل الحسن عن النبيِّ ﷺ قال: «**رَحْمَةُ اللهِ عَلَىٰ خُلَفَائِي**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ وَمَنْ خُلَفَاؤُكَ؟ قَالَ: «**الَّذِينَ يُحْيُونَ سُنَّتِي مِنْ بَعْدِي وَيُعَلِّمُونَهَا عِبَادَ اللهِ**».

وقد رُوي نحوه من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا أيضًا.

فالعلماء في مقام الرُّسل بين الله وبين خلقه، كما قال ابن المنكدر: إِنَّ العَالِمَ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ، فَلْيَنْظُرْ كَيفَ يَدْخُلُ عَلَيْهِمِ.

وقال ابن عيينة: أَعْظَمُ النَّاسِ مَنْزِلَةً مَنْ كَانَ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ الأَنْبِيَاءُ وَالعُلَمَاءُ.

ولهذا المعنىٰ سمّىٰ الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ أحد كتبه بـ«إعلام الموقعين عن رب العالمين»، فالعالِم بين الله وبين خلقه؛ لأنه هو الواسطة في نقل الدين الذي تلقاه عن المرسلين؛ لأن الرسل واسطة بين الله وخلقه في بيان دِينه، والعلماء ورثة الأنبياء، لأن «**الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر**».

وقال سهل التُّستري: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ مَجَالِسِ الأَنْبِيَاءِ فَلْيَنْظُرْ إِلَىٰ مَجَالِسِ العُلَمَاءِ، يَجِيءُ الرَّجُلُ فَيَقُولُ: يَا فُلَانُ، أيش تَقُولُ فِي رَجُلٍ حَلَفَ عَلَىٰ امْرَأَتِهِ كَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ: طُلِّقَتْ امْرَأَتُهُ، وَيَجِيءُ آخَرُ فَيَقُولُ: مَا تَقُولُ فِي رَجُلٍ حَلَفَ عَلَىٰ امْرَأَتِهِ بِكَذَا وَكَذَا؟ فيقول: ليس يحنث بهذا القول. وليس هذا إلا لنبي أو عالم، فاعرفوا لهم ذلك.

الآن بعض التأكيد لهذا المعنىٰ، بعض الناس ربّما يتطاول في بعض المجالس علىٰ بعض العلماء، ثم يحصل له مسألة في طلاق أو في شيء من هذا القبيل، فيذهب إلىٰ من كان يطعن فيه أو يقدح فيه أو يسخر منه، فيسأله عن الحق في ذلك (فاعرفوا لهم ذلك) يعني اعرفوا لأهل العلم قدرهم، بعض الناس ما يعرف قدر العلماء إلا إذا اضطُرّ في مسألة معينة يرىٰ أنه يستفتي فيها العالم فيعرف قدر العالم حينئذ، بينما الأصل أن يُعرَف قدر العالم كلَّ وقت لما يبذله من جهود عظيمة في نفع الناس وفتواهم وتعليم الخير ودلالتهم علىٰ الحق والهدىٰ.

ورأت امرأة من العابدات في زمن الحسن البصري في منامها كأنها تُستفتَىٰ في المستحاضة، فقِيلَ لَهَا: أتُسْتَفْتَين وفيكم الحسن، وفي يده خاتم جبرائيل عليه السلام؟

وفي هذا إشارة إلىٰ وراثة الحسن ما جاء به جبرائيل من الوحي بخاتمه.

مثل هذه المنامات يذكرها العلماء استئناسًا.

ورأىٰ بعض العلماء النبي ﷺ في المنام فَقَالَ له: يا رسول الله، قد اختُلِف علينا في مالك والليث أيهما أعلم؟ فَقَالَ ﷺ: مالك ورث جدي يعني: ورث علمي.

الجدّ أي النصيب، ورِث جدّي أي ورث نصيبي وعلمي.

ورأىٰ بعضهم في المنام النبي ﷺ قاعدًا في المسجد، والناس حوله، ومالك قائم بين يديه، وبين يدي رسول الله ﷺ مسك، وهو يأخذ منه قبضة فيدفعها إلىٰ مالك، ومالك ينشرها علىٰ الناس فأُوِّل ذلك لمالك بالعلم واتباع السُّنة ونشرها.

ورأىٰ الفضيل بن عياض النبي ﷺ في منامه جالسًا، وإلىٰ جنبه فرجة فجاء ليجلس فيها، فَقَالَ له النبيُّ ﷺ: "هذا مجلس أبي إسحاق الفزاري".

فسئل بعضهم: أيهما كان أفضل أبو إسحاق أو فُضيل؟ فَقَالَ: كان فضيل رجل نفسه وكان أبو إسحاق رجل عامَّة. يشير إلىٰ أنّه كان عالمًا ينتفع الناس بعلمه، وكان فُضيل عابدًا نفعُه لنفسه.

والعلماء في الآخرة يتلون الأنبياء في الشفاعة وغيرها، كما في الترمذي عن عثمان عن النبي ﷺ: «يَشْفَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْعُلَمَاءُ، ثُمَّ الشُّهَدَاءُ».

وقال مالك بن دينار: "بَلَغَنَا أَنَّهُ يُقَالُ لِلعَابِدِ: ادْخُلِ الجَنَّةَ، وَيُقَالُ لِلْعَالِمِ: قِفْ فَاشْفَعْ".

وقد روي هذا مرفوعًا من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف جدًّا.

وللعلماءِ الكلامُ في الموقف إذا اشتبهت الأمور علىٰ الناس؛ فإذا ظن أهل الموقف أنّهم لم يلبثوا في قبورهم إلا ساعة؛ بَيّن أهل العِلْم أن الأمر علىٰ خلاف ذلك كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ۝٥٥ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِۖ﴾ [الروم] الآية.

والعلماء يخبِرون يوم القيامة بخزي المشركين كما قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢٧﴾ [النحل].

وقد روي في حديث مرفوع: «أَنَّ النَّاسَ يَحْتَاجُونَ فِي الجَنَّةِ إِلَىٰ العُلَمَاءِ كَمَا كَانُوا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِمْ فِي الدُّنيا، إِذَا اسْتَدْعَىٰ الرَّبُّ أَهْلَ الجَنَّةِ لِزِيَارَتِهِ وَقَالَ لَهُمْ: سَلُونِي مَا شِئْتُمْ فَيَلْتَفِتُونَ إِلَىٰ العُلَمَاءِ مِنْهُمْ، فَيَقُولُونَ: سَلُوهُ رُؤْيَتَهُ؛ فَمَا فِي الْجَنَّةِ أَعْظَمُ مِنْهَا».

وهذا كله يبين أن لا درجة بعد النبوة أفضل من درجة العلماء.

وقد يُطْلَق اسم العلماء ويراد إدخال الأنبياء فيهم كما في قوله تعالىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِۚ﴾ [آل عمران:١٨].

فلم يفرد الأنبياء بالذكر؛ بل أدخلهم في مسمىٰ العلماء، وكفىٰ بهذا شرفًا للعلماء أنّهم يسمَّون باسم يجتمعون هم والأنبياء فيه.

ومن هنا قال من قال: إِنَّ العُلَمَاءَ العَامِلِينَ هُمْ أَوْلِيَاءُ اللهِ.

كما قال أبو حنيفة والشَّافعي: إِنْ لَمْ يَكُنْ العُلَمَاءُ وَالفُقَهَاءُ أَوْلِيَاءَ اللهِ فَلَيْسَ للهِ وَلِيٌّ.

وقال الإمام أحمد في أَهْلِ الْأثر: إِنَّهُمْ هُمُ الأَبْدَالُ.

وقوله ﷺ: «**إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ؛ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**».

والمراد بهذا: أن العلماء ورثوا الأنبياء فيما خلّفوه، وأن الَّذِي خلّف الأنبياء هو العِلْم النافع، فمن أخذ العِلْم وحصل له فقد حصل له الحظ العظيم الوافر الَّذِي يغبط به صاحبه.

وَرَأَىٰ ابْنُ مَسْعُود قَوْمًا فِي المَسْجِدِ يَتَعَلَّمُونَ فَقَالَ رَجُلٌ: "عَلَىٰ مَا اجْتَمَعَ هَؤُلَاءِ؟ فَقَالَ: عَلَىٰ مِيرَاثِ مُحَمَّد ﷺ يَقْتَسِمُونَهُ".

وخرج أبو هريرة إلىٰ السوق، فَقَالَ لأهله: "تَرَكْتُمْ مِيرَاثَ مُحَمَّدٍ ﷺ يُقْتَسَمُ فِي المَسْجِدِ وَأَنْتُمْ هَاهُنَا؟!".

هذه لطيفة جدًّا من أبي هريرة رضي الله عنه، وهو أنه وجد الناس في السوق فقال: (تَرَكْتُمْ مِيرَاثَ مُحَمَّدٍ ﷺ يُقْسَمُ فِي المَسْجِدِ وَأَنْتُمْ هَاهُنَا؟!) فانطلقوا للمسجد، ظنوا فيه مال وأشياء من هذا القبيل، وبقي ينتظرهم -كما جاء في تتمة الأثر-، فرجعوا إليه قالوا: ما وجدنا، أي الشيء الذي وقع في ذهنهم من مال أو غيره، قالوا: ما وجدنا، قال: أما وجدتم عالمًا يعلّم؟ قالوا: بلىٰ، قال: هذا هو ميراث محمد ﷺ «**فإن العلماء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا وإنما ورّثوا العلم**».

ولهذا في الأثر الذي قبله: فقال ابن مسعود: "ميراث محمد يقتسمونه"، فالذين يجلسون في المسجد يتعلمون العلم ويتفقهون هم في الحقيقة يقتسمون ميراث محمد عليه الصلاة والسلام؛ لأنه إنما ورّث العلم ومن أخذه أخذ بحظٍ وافر.

فتركة النبي ﷺ وميراثه هو هذا الكتاب الَّذِي جاء به مع السنة المفسِّرة له المبيِّنة لمعانيه.

وفي «صحيح البخاري» عن ابن عباس "أنّه سئل: أترك النبي ﷺ من شيء؟ قال: مَا تَرَكَ إِلَّا مَا بَيْنَ الدَّفَّتَيْنِ، يَعْنِي: دفتي المُصْحَف".

وفي «الصحيحين» عن ابن أبي أوفىٰ "أنّه سئل: هل وصىٰ رسول الله ﷺ بشيء؟ قال: وَصَّىٰ بِكِتَابِ اللهِ".

وخطب ﷺ في مرجعه من حجَّة الوداع فَقَالَ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَنِي رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبَهُ، وَإِنِّي تَارِكٌ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ: أَوَّلَهُمَا: كِتَابُ اللهِ، فِيهِ الْهُدَىٰ وَالنُّورُ، مَنِ اسْتَمْسَكَ بِهِ وَأَخَذَ بِهِ كَانَ عَلَىٰ الهُدَىٰ وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ» خرَّجه مسلم.

وفي «المسند» عن عبد الله بن عمرو قال: «خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا كَالْمُوَدِّعِ، فَقَالَ: أَنَا النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ -قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ- وَلَا نَبِيَّ بَعْدِي، أُوتِيتُ فَوَاتِحَ الْكَلِمِ وَجَوَامِعَهُ، وَعَلِمْتُ كَمْ خَزَنَةُ النَّارِ وَحَمَلَةُ الْعَرْشِ، وَعُوفِيتْ أُمَّتِي، فَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا مَا دُمْتُ فِيكُمْ؛ فَإِذَا ذُهِبَ بِي فَعَلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللهِ، أَحِلُّوا حَلَالَهُ وَحَرِّمُوا حَرَامَهُ».

قوله ﷺ: «**إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ**».

يريد أنّهم لم يورث عنهم سوىٰ العِلْم، وهذا يبيّن المراد بقوله تعالىٰ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل:١٦]، وقوله تعالىٰ عن زكريا أنّه قال: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم].

إنما أريد به ميراث العِلْم والنبوة لا المال؛ فإن الأنبياء لا يجمعون مالًا يتركونه.

قال عليه الصلاة والسلام: «مَا تَرَكْتُ بَعْدَ مُؤْنَةِ عَامِلِي وَنَفَقَةِ عِيَالِي فَهُوَ صَدَقَةٌ»، وَمَا تَرَكَ إِلَّا دِرْعَهُ وَسِلَاحه، وَبَغْلَتَهُ الْبَيْضَاءَ، وَأَرْضًا جَعَلَهَا صَدَقَةً.

فلم يخلِّف سوىٰ آلته بعده، والأرض التي كان يقتات منها هو وعياله ردها صدقة علىٰ المسلمين.

وكل هذا إشارة إلىٰ أن الرسل لم تُبْعث بجمع الدنيا وتوريثها لأهليهم، وإنما بُعِثوا بالدعوة إلىٰ الله والجهاد في سبيله، والعلم النافع وتوريثه لأممهم.

وفي مراسيل أبي مسلم الخولاني، عن النبيِّ ﷺ قال: «مَا أَوْحَىٰ اللهُ إِلَيَّ أَنْ أَجْمَعَ المَالَ وَأَكُنْ مِنَ التَّاجِرِينَ، وَلَكِنْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ: أَنْ سَبِّحَ ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٩٨ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر] » خرّجه أبو نُعيم.

وفي الترمذي وغيره عن ابن مسعود أنَّ النبي ﷺ قال: «مَا لِي وَلِلدُّنْيَا؟! إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ بِظِلِّ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا».

فقوله ﷺ: «**وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ**». فيه إشارة إلىٰ أمرين:

أحدهما: أن العالم الَّذِي هو وارث الرسول ﷺ حقيقة، كما أنّه ورِث علمه فينبغي أن يُورِّثَه كما ورَّث الرسول العِلْم، وتوريث العالم العِلْم هو أن يخلّفه بعده بتعليم أو تصنيف، ونحو ذلك مما يُنْتَفعُ به بعده.

وفي الصحيح عن النبيِّ ﷺ: «إِذَا مَاتَ العبدُ انْقَطَعَ عَمَلُه إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: عِلْمٍ نَافِعٍ، أَوْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ».

فالعالم إذا عَلَّم من يقوم به بعده؛ فقد خلَّف علمًا نافعًا وصدقة جارية؛ لأنّ تعليم العِلْم صدَقة، كما سبق عن معاذٍ وغيره، والذين علَّمهم بمنزلة أولادِه الصَّالحين يدعون له، فيجتمع له بتخلِيف علمه هذه الخصال الثلاث.

هذه فائدة عظيمة ثمينة جدًّا فانتبه لها، يعني قول النبي ﷺ: «إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث: عِلْمٍ نَافِعٍ، أَوْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ» الثلاث تجتمع للعالم؛ لأنه ورَّث عِلْمًا يُنتفع به ويبقىٰ

علمه صدقة جارية ينتفع النَّاس بعلمه، بكتبه، بتصانيفه فتبقىٰ صدقة جارية، انظُر هذه الصدقة الآن التي بين أيدينا للإمام ابن رجب وغيره من كُتب أهل العلم التي هي صدقة جارية، لا يزال الناس ينتفعون منها علمًا ويحصّلون خيرًا ونفعًا.

وأيضًا قوله في الحديث: «أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ» فإن طُلّاب العالم الذين تعلَّموا عليه وتلقَّوا العلم بمنزلة أولاده الصالحين؛ بل إنه في بعض الأحوال يكون بعض طُلّاب العالم أبر بالعالم من أولادِه، في دعائهم له ونشرهم لعلمه وأشياء من هذا القبيل كثيرة، فقد يكونون أبر من أبنائه به.

فالحاصل أن العالم هذه الأمور الثلاثة كلها تجتمع له التي لا تنقطع بعد الموت «عِلْمٍ نَافِعٍ، أَوْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ».

وهنا نتذكّر أيضًا قول الله ﷻ في أوائل سورة يس: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾ [يس:١٢] فهذه الآية فيها أنَّ الكتابة لعمل العبد كتابتان: كتابة لعملك.. صلّيت، صُمت، تصدَّقت.. إلىٰ آخره يُكتب العمل أوَّل بأوَّل.

وثمة أمر آخر يُكتب أيضًا ﴿وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾ [يس:١٢] فنكتب آثارهم، وهو أثر العابد أو أثر العالم، أو أثر النَّاصح أو أثر المعلم أو أثر المتصدِّق هذا يُكتب، فمثلًا: رجل بنىٰ دارًا للأيتام وصاروا يأوون إليها ويسكنون فيها ومات، بعد موتِه لا يزال يُكتب له هذا العمل، كلُّ يوم يُكتب له هذا العمل، ورّث كتبًا للعلم لا يزال يُكتب له، ورَّث علمًا يُنتفع به لا يزال يُكتب له حتىٰ بعد موته؛ ولهذا بعض الناس هم من سنوات ومئات السنوات أموات في قبورهم؛ لكن كل يوم يُكتب لهم، وهناك أناس يمشون الآن علىٰ وجه الأرض ولا يُكتب لهم عمل صالح.. يُكتب لهم سيئات، وفيه أناس في بطن الأرض أموات مدفونون كل يوم يُكتب لهم عمل صالح، وثمة أشخاص يمشون علىٰ أقدامهم علىٰ وجه الأرض تمرُّ الأيام والشهور لا يُكتب لهم إلا السيئات والآثام والعياذ بالله.

فقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾ [يس:١٢] أي: كما يُكتب عمل المرء أيضًا يُكتب أثر عمله، وإذا كان الإصلاح والدعوة والتعليم يُكتب للمصلح هذا العمل، فكذلك والعياذ بالله المفسد، بعض المفسدين مات ودُفن ولا يزال فساده في الأرض موجود فكلما فعل الناس هذا الفساد الذي هو كان سبب فيه يُكتب عليه ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النحل]، «من دعا إلىٰ هدىٰ كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص من أجورهم شيء، ومن

دعا إلىٰ ضلالة كان عليه من الوزر مثل أوزار من تبعه لا ينقص من أوزارهم شيء».

والأمر الثاني: أن من كمال ميراث العالم للرسول عليه السلام ألا يخلّف الدنيا كما لم يخلّفها الرسول، وهذا من جملة الاقتداء بالرسول وبسنّته في زهده في الدنيا، وتقلّله منها، واجتزائه منها باليسير.

لكن قال عليه الصلاة والسلام في هذا الباب ناصحًا: «إنك أن تذر ورثتك أغنياء خيرًا من أن تذرهم عالة يتكفَّفون الناس».

كما كان سهل التُّستري يقول: مِنْ عَلَامَةِ حُبِّ السُّنَّةِ حُبُّ الآخِرَةِ وَبُغْضُ الدُّنْيَا، وألا يأخذ مِنْهَا إِلَّا زَادًا بُلْغَةً إِلَىٰ الآخِرَةِ.

وقال مالك بن دينار: إِنَّمَا العَالِمُ الَّذِي إِذَا أَتَيْتَهُ فِي بَيْتِهِ فَلَمْ تَجِدْهُ قَصَّ عَلَيْكَ بَيْتَه.

أي عرفت حاله من بيته وأنه ليس فيه تعلق بالدنيا.

رَأَيْتَ حَصِيرَةَ الصَّلاةِ وَمُصْحَفِهِ وَمَطْهَرَتَهُ فِي جَانِبِ البَيْتِ، تَرَىٰ أَثَرَ الآخِرَةِ.

إذا دخلت في بيته ترىٰ أثر الآخرة، كتاب العلم قريب منه والمصحف ومكان يصلي فيه، فترىٰ أثر الآخرة، بينما -الله المستعان- الآن عندما يُدخل في بيت كثير من الناس ترىٰ آثار الدنيا، وخاصة الفتن.. الفتن تملأ البيوت، ولهذا تمرض القلوب مرضًا عظيمًا، وتُضعف الإيمان وتخلخل الدين، وتؤثر حتىٰ في العقيدة والخُلُق.

وكان الفضيل يقول: احْذَرُوا عَالِمَ الدُّنْيَا لَا يَصُدَّكُمْ بِسُكْرِهِ، ثم قال: إِنَّ كثيرًا مِنْ عُلَمَائِكُمْ زِيُّهُ أَشْبَهَ بِزِيِّ كِسْرَىٰ وَقَيْصَر، أَشْبَهُ مِنْهُ بِزِيِّ مُحَمَّد ﷺ، إِنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَضَعْ لَبِنَةً عَلَىٰ لَبِنَةٍ، وَلَا قَصَبَةً عَلَىٰ قَصَبَةٍ، وَلَكِنْ رُفِعَ لَهُ عَلَمٌ فَشَمَّرَ إِلَيْهِ.

وكان يقول: العُلَمَاءُ كَثِيرٌ وَالحُكَمَاءُ قَلِيلٌ، وَإِنَّمَا يُزَادُ مِنَ العِلْمِ الحِكْمَةُ، فَمَنْ أُوتِيَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا.

وهكذا كان حال العُلَمَاء الربَّانيين كالحسن وسفيان وأحمد، اجتزؤوا من الدُّنيا باليسير إلىٰ أن خرجوا منها، ولم يخلِّفوا سوىٰ العِلْم، مع أن بعضهم كان يلبس لباسًا حسنًا، ويأكل أكلًا متوسطًا بعيدًا من التقشُّف كالحسن البصري؛ فإنه كان يأكل اللحم كل يوم، كان يشتري بنصف درهم لحمًا فيطبخه مرقة

طيبة فيأكل منه هو وعياله، ويُطْعِمُ كل من دخل عليه، وكان يلبس الثياب الحسنة، وهو مع هذا أزهد الناس في الدنيا، وما زاحم علىٰ شيء منها قط.

وكان الناس إذا دخلوا عليه خرجوا من عنده، ولا يعدون الدُّنْيَا شيئًا، وما رأوا أشد احتقارًا لأهل الدُّنْيَا منه.

هذا يفيد أن الزهد في الدنيا ألا تكون الدنيا في قلب الإنسان، فقد تكون الدنيا في يده لكنه زاهد، وليست مستولية علىٰ قلبه ولا مسيطرة عليه زاهدٌ فيها، وهذا يُعرف في كثير من الزُهّاد؛ يعني مع زهده عنده دنيا، فتح الله عليه من الدنيا ويسّر له من أبواب الخير فيها، لكنَّها لم تشغله عن الآخرة ولم تلهه عن الآخرة، ومن الناس قليل ذات اليد وليس زاهدًا في الدُّنيا، قلبه كله متعلقٌ بها مع قلّة ذات يده.

فأصبح العبرة بالأمر في حقيقة الزُّهد عدم تعلُّق القلب، وانشغاله بالدنيا وأن تكون أكبر هم الإنسان، ولهذا جاء في الحديث «اللّٰهُمَّ لا تجعل الدنيا أكبر همِّنا ولا مبلغ علمنا».

❀❀◈❀❀

وكانوا يدخلون عليه في مرضه يعودونه وليس في بيته إلا سرير مزمولٌ هو عليه، وليس في بيته قليل ولا كثير، حتىٰ قال ابن عون: "إِنَّمَا اسْتَبَدَّ الحَسَنُ النَّاس بِالزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا، فَأَمَّا العِلْمُ فَقَدْ شُورِكَ فِيهِ".

وكان الحسن يقول: "إِنَّمَا الْفَقِيهُ الزَّاهِدُ فِي الدُّنْيَا، الرَّاغِبُ فِي الْآخِرَةِ، المُجْتَهِدُ فِي العِبَادَةِ، القَائِمُ بِسُنَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ".

وكان سفيان الثوري أشد تقشُّفًا في ملبسه من الحسن، حتىٰ كان من يراه ولا يعرفه يظنه من السُّؤَّال

أي الذين يسألون الناس.

❀❀◈❀❀

وكان مع شدة ورعه إذا وجد الحلال أكل منه طيبًا، وإن لم يجد حلالًا استف الرمل، وربما بقي ثلاثًا لا يطعم شيئًا مع عرض الناس عليه الأموال الكثيرة، وكان إذا شبع من الحلال يزيد في عمله ويقول: أطعم الزنجي وكُدَّه.

وكان أزهد الناس في الدُّنْيَا في زمانه حتىٰ كان يتعرىٰ بمجلسه عن الدُّنْيَا، ولم تكن السلاطين والملوك والأغنياء أذل منهم في مجلسه، ولا الفقراء والمساكين أعز منهم في مجلسه.

وكان الخوف قد غلب عليه، فلما مرِض مرَض الموت حُمل ماؤه إلىٰ طبيب فَقَالَ: لَيْسَ لِهَذَا دَوَاءٌ، هَذَا قَدْ فَتَّتَ الحُزنُ وَالخَوفُ كَبِدَهُ.

ويقال: لم يكن في زمانه من هو أخوف لله منه، ولا من هيبة الله في صدره أعظم منه.

ولما مات قال بعض العُلَمَاء: معشر أهل الهوىٰ! كلوا الدُّنْيَا بالدين فقد مات سفيان -يعني ما بقي بعده أحد يستحيا منه.

وأما الإمام أحمد فكان أشد منهما تقشُّفًا في عيشه، وأكثر صبرًا علىٰ خشونة العيش وقلَّته، فكانت معيشته من حوانيت له ورثها من أبيه، ويأخذ أجرها في الشهر دون عشرين درهمًا، ومات لم يخلّف إلا قطعًا في خرقة له، كان وزنها دون نصف درهم، وترك عليه دينًا قُضي عنه من أجرة حوانيته مع كثرة ما كان يرد عليه من الخلفاء من الجوائز والصِّلات.

وكان يحيىٰ بن أبي كثير من العُلَمَاء الربانيين المتوسِّعين في العِلْم، وكان يقال: إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ عَلَىٰ وَجْهِ الأَرْضِ مِثْلُهُ، وَكَانَ حسن الثياب، حسن الهيئة، فلما مات خلّف ثلاثين درهمًا كفّنوه بها رَحِمَهُ اللَّهُ.

وكان محمد بن أسلم الطوسي من العُلَمَاء الربَّانيين الزُّهّاد، فمات ولم يخلّف سوىٰ كساءه ولبده، فوضعوهما علىٰ نعشه وإناء للوضوء تصدقوا به. فكان النساء علىٰ السطوح يقلن في جنازته: هَذَا العَالِمُ الَّذِي خَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا، وَهَذَا مِيرَاثُهُ الَّذِي عَلَىٰ جَنَازَتِهِ، لَيْسَ مِثْلَ عُلَمَائِنَا هَؤُلَاءِ عَبِيدُ بُطُونِهِمْ، يَجْلِسُ أَحَدُهُمْ لِلْعِلْمِ سَنَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا فَيَشْتَرِي الضِّيَاعَ وَيَسْتَفِيدُ المَالَ.

وقال العباس بن مرثد: سَمِعْتُ أَصْحَابَنَا يَقُولُونَ: صَارَ إِلَىٰ الأَوْزَاعِي أَكْثَرُ مِنْ سَبْعِينَ أَلْفَ دِينَارٍ مِنَ السُّلْطَانِ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ، فَلَمَّا مَاتَ خَلَّفَ سَبْعَةَ دَنَانِيرَ بَقِيَتْ بَقِيَّة، وَمَا كَانَ لَهُ أَرْضٌ وَلَا دَارٌ.

قال العباس: نَظَرْنَا فَإِذَا هُوَ أَخْرَجَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ وَالفُقَرَاءِ.

وقد وصف الله سبحانه في كتابه العُلَمَاء بأوصاف منها: الخشية والخشوع والبكاء، كما سبق ذكره، ومنها احتقار الدُّنْيَا والتزهيد فيها كما قال تعالىٰ في قصة قارون: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [القصص].

وقيل للإمام أحمد: إِنَّ ابن المبارك قِيلَ لَهُ: كيف يُعْرَف العالم الصادق؟ فَقَالَ: الَّذِي يَزْهَدُ فِي الدُّنْيَا وَيُقْبِلُ عَلَىٰ أَمْرِ الآخِرَةِ. فَقَالَ أحمد: نعم، هكذا ينبغي أن يكون، وكان أحمد ينكر علىٰ أهل العِلْم حب الدُّنْيَا والحرص علىٰ طلبها.

واعلم أنّه إِنَّمَا أَهْلَك أهل العِلْم وأوجب إساءة ظن الجُهَّال بهم وتقديم جُهّال المتعبدين عليهم ما دخل

عليهم من الطمع في الدُّنْيَا.

وقد رأىٰ علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجلًا يقص، فَقَالَ له: لأَسْأَلَنَّكَ مَسْأَلَةً، فَإِنْ خَرَجْتَ مِنْهَا وَإِلَّا عَلَوْتُكَ بِهَذِهِ الدُّرَّةِ، فَقَالَ له: سَلْ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ.

فَقَالَ له: مَا ثَبَاتُ الدِّينِ وَزَوَالُهُ؟

فَقَالَ له: ثَبَاتُ الدِّينِ الوَرَعُ، وَزَوَالُهُ الطَّمَعُ.

فَقَالَ له: قُصَّ، فَمِثْلُكَ يَقُصُّ.

وهذا السؤال من عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لهذا القاص فيه إشارة إِلَىٰ أن من نشر علمه للناس وتكلم عليهم، ينبغي أن يكون ورِعًا عما في أيديهم، غير طامعٍ في شيء من أموالهم ولا أرزاقهم، ولا اجتلاب قلوبهم إليه، وإنما ينشر علمه لله عَزَّوَجَلَّ ويتعفف عن الناس بالورع.

وفي سنن ابن ماجه عن ابن مسعود قال: "لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ صَانُوا الْعِلْمَ وَوَضَعُوهُ عِنْدَ أَهْلِهِ لَسَادُوا أَهْلَ زَمَانِهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ بَذَلُوهُ لِأَهْلِ الدُّنْيَا لِيَنَالُوا بِهِ مِنْ دُنْيَاهُمْ فَهَانُوا عَلَيْهِمْ، سَمِعْتُ نَبِيَّكُمْ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا: هَمَّ آخِرَتِهِ، كَفَاهُ اللهُ هَمَّ دُنْيَاهُ، وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا لَمْ يُبَالِ اللهُ فِي أَيِّ وَادٍ مِنْ أَوْدِيَتِهَا هَلَكَ».

وقال أبو حازم الزَّاهد: لَقَدْ أَتَتْ عَلَيْنَا بُرْهَةٌ مِنْ دَهْرِنَا وَمَا عَالِمٌ يَطْلُبُ أَمِيرًا، وَكَانَ الرَّجُلُ إِذَا عَلِمَ اكْتَفَىٰ بِالعِلْمِ عَمَّا سِوَاهُ، فَكَانَتْ الأُمَرَاءُ تغشاهم في منازلهم وتقتبس منهم، فَكَانَ فِي ذَلِكَ صَلَاحٌ لِلْفَرِيقَيْنِ لِلْوَالِي والمُولىٰ عَلَيْهِ، فَلَمَّا رَأَتْ الأُمَرَاءُ أَنَّ العُلَمَاءَ قَدْ غَشَوْهُمْ وَجَالَسُوهُمْ، وَسَأَلُوهُمْ مَا فِي أَيْدِيهِمْ هَانُوا عَلَيْهِمْ، وَتَرَكُوا الأَخْذَ عَنْهُمْ وَالاقْتِبَاسَ مِنْهُمْ، فَكَانَ فِي ذَلِكَ هَلَاكُ الفَرِيقَيْنِ الوَالِي والمُولىٰ عَلَيهِ.

ودخل أعرابيٌّ البصرة فَقَالَ: مَنْ سَيِّدُ هَذِهِ القَرْيَةِ؟ فقالوا: الحَسَنُ، قَالَ: فَبِمَ سَادهُمْ؟ قالوا: احْتَاجَ النَّاسُ إِلَىٰ عِلْمِهِ، وَاسْتَغْنَىٰ هُوَ عَنْ دُنْيَاهُمْ.

وكان الحسن يقول: "إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ شَيْنًا، وَشَيْنُ العِلْمِ الطَّمَعُ".

وقال: "مَنْ ازْدَادَ عِلْمًا فَازْدَادَ عَلَىٰ الدُّنْيَا حِرْصًا، لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللهِ إِلَّا بُعْدًا، وَلَمْ يَزْدَدِ اللهُ لَهُ إِلَّا بُغْضًا".

واجتاز الحسن يَوْمًا ببعض القراء عَلَىٰ أبواب بعض السلاطين فَقَالَ: "أَقْرَحْتُمْ جِبَاهَكُمْ، وَفَرْطَحْتُمْ نِعَالَكُمْ، وَجِئْتُمْ بِالعِلْمِ تَحْمِلُونَهُ عَلَىٰ رِقَابِكُمْ إِلَىٰ أَبْوَابِهِمْ، فَزَهِدُوا فِيكُمْ، أَمَّا إِنَّكُمْ لَوْ جَلَسْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ يَكُونُوا هُمُ الَّذِينَ يُرْسِلُونَ إِلَيْكُمْ؛ لَكَانَ أَعْظَمَ لَكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ، تَفَرَّقُوا فَرَّقَ اللهُ بَيْنَ أَضْلَاعِكُمْ".

وفي رواية: "تَفَرَّقُوا فَرَّقَ اللهُ بَيْنَ أَرْوَاحِكُمْ وَأَجْسَامِكُمْ، فَرْطَحْتُمْ نِعَالَكُمْ، وَشَمَّرْتُمْ ثِيَابَكُمْ، وَجَزَزْتُمْ شُعُورَكُمْ، وَلَكِنَّكُمْ رَغِبْتُمْ فِيمَا عِنْدَهُمْ فَزَهِدُوا فِيكُمْ، فَضَحِكْتُمْ الْقُرَّاءَ فَضَحَكُمُ اللهُ، أَما وَاللهِ لَوْ زَهِدْتُّمْ فِيمَا عِنْدَهُمْ لَرَغِبُوا فِيمَا عِنْدَكُمْ، وَلَكِنَّكُمْ رَغِبْتُمْ فِيمَا عِنْدَهُمْ فَزَهِدُوا فِيكُمْ وَفِيمَا عِنْدَكُمْ أَبْعَدَ اللهُ مَنْ أَبْعَدَ.

وفي الجملة: فمن لا يصون نفسه لا ينتفع بعلمه ولا ينتفع غيره به.

قال الشافعي: مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ عَظُمَتْ قِيمَتُهُ، وَمَنْ كَتَبَ الحَدِيثَ قَوِيَتْ حُجَّتُهُ، وَمَنْ تَفَقَّهَ نَبُلَ قَدْرُهُ، وَمَنْ تَعَلَّمَ العَرَبِيَّةَ رَقَّ طَبْعُهُ، وَمَنْ تَعَلَّمَ الحِسَابَ جَزُلَ رَأْيُهُ، وَمَنْ لَمْ يَصُنْ نَفْسَهُ لَمْ يَنْفَعْهُ عِلْمُهُ.

وفي هذا المعنىٰ يقول أبو الحسن عبد العزيز الجرجاني رَحِمَهُ اللهُ:

يَقُولُونَ لِي فِيكَ انْقِبَاضٌ وَإِنَّمَا ... رَأَوْا رَجُلًا عَنْ مَوْقِفِ الذُّلِّ أَحْجَمَا
أَرَىٰ النَّاسَ مَنْ دَانَاهُمُ هَانَ عِنْدَهُمْ ... وَمَنْ أَكْرَمَتْهُ عِزَّةُ النَّفْسِ أُكْرِمَا
وَلَمْ أَقْضِ حَقَّ العِلْمِ إِنْ كَانَ كُلَّمَا ... بَدَا طَمَعٌ صَيَّرْتُهُ لِي سُلَّمَا
إِذَا قِيلَ هَذَا مَنْهَلٌ قُلْتُ قَدْ أَرَىٰ ... وَلَكِنَّ نَفْسَ الحُرِّ تَحْتَمِلُ الظَّمَا
وَلَمْ أَبْتَذِلْ فِي خِدْمَةِ العِلْمِ مُهْجَتِي ... لِأَخْدِمَ مَنْ لَاقَيْتُ لَكِنْ لِأُخْدَمَا
أَأَشْقَىٰ بِهِ غَرْسًا وَأَجْنِيهِ ذِلَّةً ... إِذًا فَاتِّبَاعُ الْجَهْلِ قَدْ كَانَ أَحْزَمَا
وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُمْ ... وَلَوْ عَظَّمُوهُ فِي النُّفُوسِ لَعُظِّمَا
وَلَكِنْ أَهَانُوهُ فَهَانُوا وَدَنَّسُوا ... مُحَيَّاهُ بِالْأَطْمَاعِ حَتَّىٰ تَجَهَّمَا

الحرص عَلَىٰ الدُّنْيَا والطمع فيها قبيح وهو من العُلَمَاء أقبح، فإن كان بعد نزول الشيب فهو أقبح وأقبح.

لبس بعض العُلَمَاء من التابعين ثيابه وتهيأ ليمضي لبعض الملوك فأخذ المرآة فنظر فيها فنظر في لحيته طاقة شيب، فَقَالَ: السلطان والشيب! ثم نزع ثيابه وجلس، وأنشد فقال:

قَدْ آنَ بَعْدَ ظَلَامِ الجَهْلِ إِبْصَارِي ... لِلشَّيْبِ صُبْحٌ يُنَادِينِي بِأَسْفَارِي
لَيْلُ الشَّبَابِ قَصِيرٌ فَاسْرِ مُتَّئِدًا ... إِنَّ الصَّبَاحَ قُصَارَىٰ الْمُدْلِجِ السَّارِي
كَمْ ذَا اغْتِرَارِي بِالدُّنيا وَزُخْرُفِهَا ... أَبْنِي بِنَاهَا عَلَىٰ جُرْفٍ لَهَا هَارِ
دَارٌ مَآثِمُهَا تَبْقَىٰ وَلَذَّتُهَا ... تَفْنَىٰ أَلا قَبُحَتْ هَاتِيكَ مِنْ دَارِ
لَيسَ السَّعِيدُ الَّذِي دُنْيَاهُ تُسْعِدُهُ ... إِنَّ السَّعِيدَ الَّذِي يَنْجُو مِنَ النَّارِ
أَصْبَحْتُ مِنْ سَيِّئَاتِي خَائِفًا وَجِلًا ... وَاللهُ يَعْلَمُ إِعْلَانِي وَإِسْرَارِي
إِذَا تَعَاظَمْتُ ذَنْبِي ثُمَّ آيَسَنِي ... رَجَوْتُ عَفْوَ عَظِيمِ العَفْوِ غَفَّارِ

نجزت، والحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله وسلم عَلَىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن ينفعنا أجمعين بما علّمنا، وأن يزيدنا علمًا وتوفيقًا، وأن يُصلح لنا شأننا كله، وألا يكلنا إلىٰ أنفسنا طرفة عين.

وهذه الرِّسالة مثلما رأيتم مليئة بالآثار والنُّقول والفوائد العظيمة، التي جدير بطالب العلم أن يقرأها متأمِّلًا، وقراءتنا هذه أردنا أن نذكِّر بهذه الرسالة وقيمتها وأهمية مطالعة طالب العلم لها، وإلا فإن حقَّها أن تُقرأ بأناة وتمهُّل وتأمل في ما حوته من خير وفائدة عظيمة؛ لكن الإخوة بالقراءة السريعة رأوا أنه حتىٰ يكفي الوقت المقرّر لاستكمالها وقراءتها كاملة، وإلا إذا انفردت بنفسك وقرأتها بأناة وتأملت فيها، وجعلت أيضًا تقرأها مرة من بعد مرة فإنها تشحذ كما ترىٰ في نفسك معاني عظيمة من الخير والعلم، والرغبة والخشية والزُّهد، ومعاني جليلة جدًّا بثها الإمام ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ ونحسبه من العلماء الربانيِّين، فبثها في هذه الرسالة النافعة المفيدة.

فنسأل الله الكريم أن ينفعنا بما علّمنا وأن يزيدنا علمًا وتوفيقًا، وأن يصلح لنا شأننا كله، وألّا يكلنا إلىٰ أنفسنا طرفة عين، وأن يغفر لنا ولوالدينا وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات.

سبحانك اللّٰهمَّ وبحمدك، أشهد ألا إِلٰهَ إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

اللهم صلِّ وسلم علىٰ عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.